دراسة وتحليل

الأمير ابن سنان الحلبي

٤٢٣ — ٤٦٦ هـ

— ٢ —

للأستاذ محمد علي الهرير

— ٥ —

ولما جاوز ابن سنان سن الشباب كان في أوج مجده الأدبي، وبلغ صيته إلى دولة بني أسد في الحلة، فأرسل ظهير الدولة ابن عبد الرحيم وزير أبي الأغر الأسدي ملك الحلة وضواحيها من عام ٤٠٨ هـ إلى عام ٤٧٤ هـ يسأله أن يتحفه بروائع مدائحه، فبعث ابن سنان إليه بعدة قصائد، ومنها قصيدة في الاشادة به. يقول فيها:

قل للأمير أبي الأغر ودونه ... قطالبين سباسب وحجول
يثوي ابن عمك بالعراق وقومه ... كالدود حن وحفله معقول
ما صدهم عنك الجفاء وإنما ... مالوا مع الأيام حيث تميل

ونرى ابن سنان في هذه القصيدة يريد أن يؤكد للوزير أن قلبه وقلوب قومه الخفاجيين مع ابن عمه الأسدي، ملك الحلة.

والواقع أن حياة الأمير ابن سنان السياسية كانت حافلة بالأحداث الكبيرة التي لا تزال أسرار الكثير منها غامضة حتى اليوم، وقد كشف عن جوانب متعددة منها مؤلف كتاب «بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي»: الأستاذ الكبير محمد عبد المنعم خفاجي الأستاذ بكلية اللغة العربية. واتصل الأمير ابن سنان من عام ٤٥٧ هـ بأمير حلب محمود بن صالح بن مرداس، ومدحه بقصائد كثيرة، يطلب فيها منه ولاية من الولايات، واستجاب أخيراً لرجائه الأمير، فقد توسط وزير الأمير محمود لديه حتى قلده قلعة «عزاز» وكان ذلك في أواخر سنة ٤٦٠ هـ.

وفي خلال عام ٤٦١ هـ وعام ٤٦٢ هـ مدح الأمير بعدة قصائد من جيد الشعر العربي، أشاد فيها بملكه، ونوه بحكمته وحزمه، وسداد رأيه في إدارة الشئون ومجابهة الحوادث.

وكان يمكن للشاعر أن يستقر في مقامه بهذه القلعة بعد هذا العناء الطويل ، ثم يتحين الفرص لتعزيز مجده وتوسيع سلطانه ، ولكن حياة الشرود والاستقرار لم تلبث أن ضجرت به ، فعاوده الحنين إلى وكوب الأهوال وادراع المخاطرات ، فشق عصا الطاعة على الأمير محمود ، واستقل عنه بولاية « عزاز » فاحتال عليه حتى أرسل إليه السم بوساطة وزيره ابن النحاس عام ٤٦٦ هـ فمات ، وحملت جثته إلى حلب فدفن بها .

وهكذا أسدل الستار على هذه الحياة الحافلة بالطموح والمجد والاباء والعزة ، احتذى صاحبها حذو الآباء والأجداد ، فرحمه الله ، وأكرم مثواه .

وجدير بالذكر في هذا المقام أن نشير إلى أن البارودي قد جعل ابن سنان في مختاراته من الشعراء الذين نقل عنهم الكثير من شعرهم ، فقد ذكر له نحو ٧٨٥ بيتاً في شتى أغراض الأدب والمدح والرثاء والوصف والنسيب والهجاء والزهد .

ومن ديوانه نسخة خطية بدار الكتب ، وقد طبع الديوان ببيروت في ١١٦ صفحة ، وشعر ابن سنان كله مختار جيد لا سيما ما نظمه من بعد صباه وهو — كما ذكرنا — مظهر لشخصيته في أحوال يأسه وأمله وفقره وغناه وظفره وفشله ، وفي فضائله الخلقية الكريمة وفي طموحه البعيد الوثاب وفي نظراته الفلسفية التي استمدها من استاذه أبي العلاء .

ولابن سنان كتاب منفرد في البلاغة والبيان وهو كتاب جليل عظيم الخطر كبير الأثر في بحوث النقد والبلاغة . . . وتكلم فيه الخفاجي على اللغة ثم على الحروف ثم على الالفاظ المفردة وصفاتها وأسباب الفصاحة فيها ، ثم على الالفاظ المؤلفة وأسرار فصاحتها ثم على المعاني المفردة وما يجب أن تكون عليه في التأليف ليكون الكلام موافقاً للعقل والتفكير .

وابن سنان في كتابه رجل ذو ثقافة واسعة — درس كتب الأدب والنقد واللغة ، وكانت من خصائص وميزات ثقافته هذه الناحية الكلامية التي سار فيها . وأسلوبه في الجدل أسلوب قريب من أساليب المتكلمين ، وهو فوق ذلك منصف معتدل في نقده يعتمد على الحجة والدليل قبل كل شيء ، ويختبر كل شيء بميزان العقل والتفكير ، ويرتب كل شيء على أساس حكم العقل واستنتاجه .

وقد نوه ابن الأثير في أول مثله السائر بالكتاب ومؤلفه وأشاد به أعظم إشادة وتأثر به في بحوث كتاب « المثل السائر » ونقد بعض آرائه في بعض الأحايين . وكتب البلاغة المؤلفة في العصور الأخيرة وخاصة الايضاح للخطيب المتوفى عام ٧٣٩ هـ قد تأثرت بسر الفصاحة وآرائه إلى حد بعيد ، فهو المصدر الأول للبلاغيين كما هو أهم مصدر من مصادر الأدب والنقد .